



أجمع المحاضرون والمشاركون في الجلسة المخصصة لمناقشة السياسة الروسية في سوريا، ضمن المؤتمر الذي أقامه معهد الدوحة للدراسات العليا، بالتعاون مع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يومي 4 و 5 مارس/ آذار الجاري، عن سياسة روسيا في الشرق الأوسط، أجمعوا على أن من الصعب فهم هذه السياسة في سوريا، وتساءلوا عما إذا كانت روسيا تملك رؤية لإنتهاء الصراع في سوريا الذي انطلق في مارس/ آذار 2011، ويُكمل سنته السابعة الشهر الجاري . "سيكون الظنَّ أنَّ السياسة الخارجية لبلد ما لا تنطلق من أرض فكرية صلبةً أمراً غير مقبول في عالم اليوم". وروسيا دولةٌ بُشِّرَتْ ولديها رؤيتها لدورها في العالم الذي تطمح إليه، ولديها استراتيجيتها وتقنياتها. كما كتب الدكتور نواف التميمي في

مقالةٍ في "العربي الجديد" (19/10/2015) :

لكن كل رؤية واستراتيجية وتقنياتها تحتمل الخطأ في رسماها، كما تواجه تحديات التنفيذ في أرض الواقع. ويمكن فهم سياسة روسيا في سوريا على ضوء مجموعتين من العوامل: واحدة تتعلق برؤية روسيا لدورها في العالم واستراتيجيتها العالمية، وسوريا جزء من هذه الاستراتيجية، وأخرى تتعلق بالصراع الدائر في سوريا ذاتها وأطرافه الإقليمية .

دور ورؤيه

يشكل الحنين للفترة السوفيتية عاملاً رئيساً في تشكيل الوعي الوطني الروسي، خصوصاً أنَّ القيادات العسكرية والسياسية والاجتماعية والفكرية قد عاشت شبابها ورداً من عمرها في تلك الفترة، حين كانت روسيا في قالبها السوفيتي تشكل قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة. ويمثل الحنين لتلك الفترة الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، أيضاً الذي يعتبر أنَّ انهيار الاتحاد السوفيتي بمثابة الكارثة الجيوسياسية الأكبر في القرن العشرين، وقد وعد بوتين الروس بأنه سيعيد مجدهم روسيا.

وبينما تتجه "نخب روسية ليبالية معارضة" نحو رؤية أكثر قرباً من القيم والسياسة الغربيتين، تسعى "نخب روسية وطنية" إلى استعادة ذلك الدور الروسي - السوفيتي السابق، أو شيء قريب منه. وتتخذ مجموعة النخب الوطنية موقفاً سلبياً تجاه قيم الليبرالية والديمقراطية، كونها فيما غربية تمحو التقاليد والثقافات في البلدان التي تهيمن عليها، وترى أن النظام العالمي أحادي القطبية قد انهار، ولم يبق منه سوى القشرة، ويمكن للصين مع روسيا العمل لتغيير أحدية القطب العالمي الأميركي، ويطمح الرئيس بوتين إلى بناء الاتحاد الأوروبي واسع الأبعاد الذي يضمّ روسيا وكازاخستان وبيلاروسيا وأوكرانيا .

جاء استمرار عداء الغرب لروسيا مثل طasse ماء بارد على المشاعر القومية الروسية الحارة، فزادها تصلباً وعناداً، فقد سلخت دول الغرب من الهيمنة الروسية دول شرق أوروبا ودول الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا والبلطيق، وشجعت التمرّد في كل من الشيشان وجورجيا وأوكرانيا، بل مولت الولايات المتحدة مظاهرات ضدّ بوتين سنة 2011، وطوقت روسيا بحزام من الصواريخ البالستية، وفرضت عقوبات اقتصادية وسياسية على روسيا، رداً على سيطرتها على القرم، أي عاملتها كدولة عالمثالثية، بينما لم يفرض أحد أي عقوبات من أي نوع على أميركا وحلفائها الذين غزوا العراق بدون أي تفويض أمريكي، كما عامل الرئيس الأميركي السابق، باراك أوباما، روسيا وبوتين باستخفاف، فقد قال في خطاب الاتحاد في ديسمبر/ كانون الأول 2015: "نجحتنا في احتواء إيران وروسيا واستنزاف مواردهما في سوريا. ولدينا أعظم اقتصاد في العالم وأقوى جيش في العالم، والدول التي لديها مشكلات تأتي إلينا، ولا تذهب إلى أي دولة أخرى". وفي تصريح آخر، قال أوباما إن روسيا دولة إقليمية ودولة ريعية .

زاد هذا التعامل من عناد بوتين وعنفه، وبقية النخبة الحاكمة في موسكو. ولعل تمظهر شخصية بوتين، وميله إلى إبراز عضلاته وقوته الشخصية وحبه المغامرة هو التعبير الأبرز عن السياسة الروسية الجديدة اليوم. وقد شهدنا هذه العقلية في كل من الشيشان وجورجيا والقرم وشرق أوكرانيا، ونراها اليوم في سوريا .

العوامل المتعلقة بالصراع

ضمن رؤية روسيا العالمية لدورها واستراتيجيتها في العالم، يشكل الصراع في سوريا جزءاً من ساحة الصراع العالمية ولوحته، ولأن الخصم الرئيس لروسيا ورأس الحرية المعادية لها هي الولايات المتحدة، فإن سياسة أميركا تجاه سوريا تعد باروميتر سياسة روسيا في سوريا، وتسمم في الصياغة اليومية للمواقف الروسية تجاه الصراع. وقد شجع انسحاب إدارة أوباما من الإقليم بوتين على لعب دور أكبر في سوريا والمنطقة .

تتبنّى القيادة الروسية إيديولوجياً معادية للحرية والديمقراطية، وترى أن الثورات الشعبية تؤدي إلى فوضى، وهي تقف ضد أي ثورة، وتؤيد الأنظمة المستبدة وتقف إلى جانبها. وقفـت السياسة الروسية ضدّ الربيع العربي بكل، وضدّ الحراك الشعـبـيـ السوري العـفـويـ الذي اـنـطـلـقـ في مـارـسـ/ـآذـارـ 2011ـ،ـ لكنـهاـ اـقـتـصـرتـ،ـ فيـ السـنـوـاتـ الـثـلـاثـ الـأـوـلـىـ،ـ عـلـىـ تـقـدـيمـ دـعـمـ سـيـاسـيـ وـدـيـلـوـمـاـسـيـ وـإـعـلـامـيـ لـلـنـظـامـ،ـ معـ اـسـتـعـدـادـ لـقـبـولـ إـجـراءـ إـصـلـاحـاتـ يـجـربـهاـ الأـسـدـ.ـ وـبـسـبـبـ الزـخمـ الـهـائـلـ لـلـحـراكـ الشـعـبـيـ،ـ وـافـقـتـ عـلـىـ تـطـيـقـ مـبـادـرـةـ جـامـعـةـ الدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ قـدـمـتـهاـ فـيـ أـكـتوـبـرـ/ـتـشـرـيـنـ الـأـوـلـ 2011ـ،ـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ تـضـمـنـهاـ مـبـدـأـ اـنـتـقـالـ سـيـاسـيـ،ـ كـمـاـ وـافـقـتـ عـلـىـ إـعـلـانـ جـنـيـفـ 1ـ نـهـاـيـةـ يـونـيـوـ/ـحـزـيرـانـ 2012ـ،ـ لإـدـرـاكـهاـ ضـعـفـ النـظـامـ آـنـذـاكـ وـاحـتمـالـ سـقـوطـهـ،ـ فـرـأـتـ فـيـ اـنـفـاقـ الـبـيـانـ إـمـكـانـيـةـ لـتـشـكـيلـ سـلـطـةـ اـنـتـقـالـيـةـ بـمـشارـكـةـ النـظـامـ .ـ

لكن مرونة روسيا المحدودة هذه اصطدمـتـ بـرـفضـ الأـسـدـ وـإـيـرانـ أـيـ نوعـ مـنـ الإـصـلاحـ.ـ أـمـاـ بـعـدـ اـزـديـادـ الطـابـعـ إـسـلامـيـ لـفـصـائـلـ الـمعـارـضـةـ،ـ وـبـرـوزـ مـجـمـوعـاتـ سـلـفـيـةـ قـوـيـةـ،ـ فـقـدـ أـصـبـحـ دـعـمـ الـرـوـسـ أـقـوىـ لـنـظـامـ الأـسـدـ.ـ غـيـرـ أـنـ التـحـولـ فيـ سـيـاسـةـ رـوـسـيـاـ تـجـاهـ الـصـرـاعـ فيـ سـوـرـيـاـ جـاءـ بـعـدـ أـحـدـاثـ أـوـكـرـانـيـاـ فـيـ فـيـرـايـرـ/ـشـبـاطـ 2014ـ،ـ ثـمـ عـنـدـماـ تـضـعـضـ الـوـضـعـ الـعـسـكـريـ

للنظام وحلفائه الإيرانيين في صيف 2015 تدخلت روسيا عسكرياً في 30 سبتمبر/ أيلول 2015. وأدى تدخلها إلى قلب الموقف عسكرياً لصالح النظام. ثم جاء التبدل في موقف تركيا بعد تأزم العلاقة مع روسيا، إثر إسقاط الطائرة الروسية وإجراءات الاقتصادية العقابية الشديدة التي اتخذها بوتين ضد تركيا، ثم بعد الانقلاب الفاشل والموقف الأميركي المشجع له ضمناً، ليكمل تبدل المعادلة السياسية في غير صالح المعارضة، والتي بدأت التراجع العسكري وبالتالي السياسي. فكانت عملية أستانة التي ساعدت بها تركيا، وتسببت في إضعاف المعارضة عسكرياً وعودة سيطرة النظام على مناطق واسعة، كانت تحت سيطرة المعارضة، وخصوصاً مدينة حلب، وجديد تجلياتها الهجوم الوحشي على الغوطة الذي يتوقع أن تتلوه هجمات مماثلة على مناطق المعارضة في الرستن وتلبيسة والحلو، ثم في شمال محافظة حماة وغرتها وفي منطقة الغاب، وستتبعها درعاً، وهذا كلّه ما لم يتم فرض وقف شامل لإطلاق النار في عموم سوريا، وما زال هذا الاحتمال غير قریب، وتسرع روسيا والنظام إلى قضم أكبر مساحة ممكنة من المناطق المتبقية تحت سيطرة المعارضة، قبل أن يصبح هذا الاحتمال أمراً واقعاً.

في المحصلة، وبفضل تدخلها في سوريا، دخلت روسيا بقوة أكبر إلى الساحة العالمية. وحققت لها قاعدتها العسكرية في طرطوس وجوداً في المياه الدافئة شرق المتوسط. واستعملت روسيا سورياً حقل تدريب للعسكريين الروس، وحقل رمي لتجريب الأسلحة الروسية، وقد أنتج هذا الأمر عدة صفقات لبيع صواريخ إس 400 إلى عدة دول في المنطقة. وقد شجعت هذه المكاسب الروسية على تقديم الدعم الكلي للنظام، سياسياً، ودبلوماسياً، وعسكرياً وماليًا.

لسنا في حاجة للقول إنه لا علاقة لموقف روسيا تجاه الصراع في سوريا برفضها التدخل في شؤون الدول ذات السيادة، فروسيا تدخلت في جورجيا وأوكرانيا، وهي دول ذات سيادة، وتدعم متمردين ضد حكومة شرعية. واقتطعت القرم من أوكرانيا بقوة السلاح.

مأزق روسيا

وعد بوتين الروسي بأنه سينتصر في سوريا سريعاً، كما انتصر في الشيشان وجورجيا والقرم. على الرغم من أن سوريا أكثر تعقيداً، وعلى الرغم من موقعها المطل على المتوسط، فهي أقل أهمية من القرم ومن أوكرانيا ومن جورجيا ومن دول البلطيق السوفيتية السابقة. وسوريا في النهاية جزء من استراتيجية روسيا الدولية، وترديها ورقة تقايض بها على أوراق أخرى بيد الغرب. ولكن شروط المقايضة لم تنضج بعد، ولا تعرف روسيا متى تنضج. ومن جهة أخرى، تعلم روسيا أنها تستطيع أن تكتسح مواقع المعارضة بوقت قصير، عبر زيادة كبيرة للقصف الجوي، لكنها تدرك أن هذا لا يخدم مصلحتها بإيجاد حلٍ يحقق قبولاً غربياً بحدِّ أدنى، ولا يخدم قبول دول الخليج وأوروبا والمؤسسات الدولية في المساعدة في إعادة إعمار سوريا بتكليفها الباهظة، والتي قدرها البنك الدولي بأكثر من مائتي مليار دولار. وتعلم أيضاً أن زيادة التدمير المادي والاجتماعي سيجعل إعادة الاستقرار في سوريا أمراً بعيد المنال، وستبقى ثمة حاجة لجيش روسية وإيرانية دائمة لحماية النظام.

تعلم روسيا أنها تخسر سمعتها في العالمين، العربي والإسلامي، بعد تدخلها العسكري في سوريا، وهذا ما بينه عرض استطلاع الرأي العام العربي الذي أجراه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في 2016، وبين تحولاً سلبياً كبيراً في موقف الشارع العربي من موقف إيجابي إلى حد ما وسلبي محدود، إلى موقف سلبي كلياً بعد التدخل العسكري في سوريا، بل بات 70% من العينة يرى أن روسيا تهدد الأمن والاستقرار في المنطقة.

لا تعرف روسيا حتى الآن كيف توفق بين حل سياسي يرضي الغرب ويدفع أميركا إلى التفاهم معها، حل يجذب أوروبا ودول الخليج للمساهمة في إعادة الإعمار، وبين خشيتها من أن أي تغيير في النظام سيؤدي إلى انهياره، وضياع مصالحها

مع أي سلطة قادمة. ثم لديها عقدة إيران باعتبارها شريكًا لديه مليشيات قوية على الأرض، والتي لا ترى سوريا بدون الأسد، وهي تريد نصراً مبيناً على المعارضة وسحقها من دون رحمة، مهما كانت التكاليف، من دون أي حل سياسي. كما تصطدم روسيا برفض النظام السوري لأي حل سياسي. وقد سعت روسيا إلى أن تمسك إيران بيد، وتركيا باليد الأخرى، وال السعودية بيد ثالثة، عليها تخلق "الخلطة" الملائمة للحل، واخترعت مسار أستانة ثم مسار سوتشي الفاشلين بديلاً لمسار جنيف. ولا تستطيع روسيا تجاهل رغبة إسرائيل بإبعاد حزب الله، وأي وجود إيراني عن حدود احتلالها في الجولان، بينما تحتاج إيران للمتاجرة بهذا الوضع. وتعلم روسيا أن الولايات المتحدة تريد أن تفرق روسيا في الوحل السوري، لذا ساهمت بعرقلة الوصول إلى أي حل سياسي، ثم جاءت استراتيجية ترامب المعلنة أخيراً، لتخرب على بوتين كثيراً مما حققه من قبل، ووضع حدود لمساحة تحرك روسيا في سوريا، وتعلم روسيا أن نقطة ضعفها تكمن في أن أميركا يمكنها، في حال تصعيد الصراع، أن تلحق خسائر كبيرة بروسيا وهيبيتها بالسماح بتمرير صواريخ أرض جو إلى سوريا. ولعل إسقاط الطائرة الروسية بصاروخ قبل أسبوعين رسالة بهذا المعنى. واليوم أصبح لدى الولايات المتحدة الآن 13 قاعدة عسكرية وموقعاً عسكرياً في شرق الفرات، ولن تنسحب من سوريا طالما كانت القواعد الروسية موجودة. وهذا يعرقل الوصول إلى أي حل سياسي يعيد وحدة سوريا مستقبلاً. وينتظر بوتين الوصول إلى تفاهم مع الأميركيان حول سوريا، ولكن يبدو أنه سينتظر طويلاً، فالأميركان ليسوا في عجلة للتتفاهم مع بوتين بشروطه، والبديل هو إغرائه في الوحل السوري، لكي يقدم تنازلًا في أوكرانيا، وهو غير مستعد لذلك. وكل هذا في النهاية تسابق بين جميع اللاعبين لإغراق سوريا وشعبها في الوحل.

أخيراً

تحتاج روسيا إلى حل، ومستعدة لعقد صفقة، لكنها لا تعرف ما هي، أو لا تجد عناصرها حتى الآن، لكن شعورها بأنها في أزمة ضاغطة يتزايد كل يوم. على الرغم من أن كل ما تحتاجه للخروج من الوحل السوري، ووضع حد لأكبر مأساة في العصر الحديث بعد الحرب العالمية الثانية، هو أن تفك بطريقة أخرى، مختلفة مما سبقها، فإعادة استعمال المبدأ نفسه، والأدوات نفسها، والمنهج نفسه، لن يعطي نتائج مختلفة، وهي نتائج كارثية يدفع الشعب السوري ثمنها الآن ومستقبلاً وستكون مشكلة لروسيا. وليس أمام روسيا سوى طرح رؤية جديدة، وصياغة حل يحقق جزءاً من مصالح كل طرف، ولا يحقق كل المصالح لأي طرف، حل يقوم على تعاون واقعي بين أطراف الصراع لإنجاحه، حل قابل للتطبيق والديمومة، يعيد الاستقرار الحقيقي لسوريا، بدلاً من الاستقرار المفروض بالسلاح، حل يفتح آفاقاً لإعادة وحدة سوريا وإعمارها وبناء نظامها السياسي الديمقراطي التعددي الذي يعيد السلطة إلى الشعب. وفي الوقت نفسه، يحقق مصالح روسيا، ويلقى قبولاً معقولاً من مختلف أطراف الصراع في سوريا. فهل هذا ممكن؟ إنه السهل الممتنع حتى الآن.

المصادر:

العربي الجديد